الفصل 10

الحركات العابرة للحدود والمجتمع المدني العالمي

بيتر (جاي) سميث (Peter (Jay) Smith)

في نهاية القرن العشرين كانت هناك زيادة ملحوظة في عدد منظمات الحراك الاجتماعي، التي تعمل معًا من أجل التغيير الاجتماعي والسياسي على مستوى عابر للحدود؛ أي عبر حدود دولتين أو أكثر (سميث 2008) (Smith 2008)، وتقوم (منظمات الحراك الاجتماعي العابرة للحدود) بالمشاركة في قضايا مثل حقوق الإنسان، والبيئة، والسلام، وحقوق المرأة، والتنمية، والعدالة الاقتصادية العالمية، وتعمل تلك المنظمات بتنسيق متزايد ضمن شبكات وضد خصم مشترك غالبًا ما يعرف بأنه (الشركات العابرة للحدود)، أو (الرأسمالية)، أو ما شاعت الإشارة إليه على أنه (الليبرالية الجديدة)، وحسب قول دوناتيلا ديلا بورتا وسيدني تارو، فإن هذا العمل الجماعي العابر للحدود هو «التغيير الأكثر درامية الذي نشهده في عالم من سياسات النزاع» (ورد في ريتان 2007، ص7) (quoted in Reitan 2007, p. 7)، وقد عبَّرت سياسات النزاع (Contentious politics) عن نفسها بأشكال وأماكن مختلفة، من مؤتمرات قمة موازية تعترض على اجتماعات هيئات دولية مثل منظمة التجارة العالمية، إلى قيام ناشطين بإنشاء أحداثهم ومجالاتهم المنظمة مثل (المنتدى الاجتماعي العالمي).

يُجسِّد المنتدى الاجتماعي العالمي – بطرق مختلفة– ثقافة السياسة، والنشاط، والنزاع التي نشأت خلال ثلاثين سنة مضت في ما وُصِفَ بأنَّه (حركة العدالة العالمية)، مع تأكيد اللامركزية، والتواصل من خلال الشبكات، والمشاركة، والتنظيم غير الهرمي، والتنوع، واللاعنف[1]، فتأكيد التنوع والتعددية ضروري لاجتذاب أعداد ضخمة من الحركات الاجتماعية والمنظمات غير الحكومية للمجال العالمي، والأمر الأهم أن وثيقة مبادئ المنتدى

الاجتماعي العالمي – الذي وضع مسودته مجلسه العالمي الحاكم في ربيع العام 2001– أوضح أنه من دعاة اللاعنف (انظر المنتدى الاجتماعي العالمي 2001).

إلا أننا لا نجد في المنتدى الاجتماعي العالمي ولا في ميثاقه شرحًا لما يعنيه بِـ (اللاعنف، والممارسات اللاعنيفة، أو شكل إستراتيجية اللاعنف)، ويجادل بعضهم – مثل ستيلان فينثاجن– بأن هذا تقصير مؤسف من حركة العدالة الاجتماعية بشكل عام، مبينًا أن من الضروري جلب «أكثر من قرن من تقاليد المقاومة اللاعنيفة إلى الحركات العالمية المعاصرة» (2006، ص1)، وعلى أي حال يقول هذا الفصل إنه إذا نظر المرء إلى اللاعنف بطريقة مختلفة، ليس من باب الاهتمام بإستراتيجية واعية بل بوصفه مدمجًا بطريقة حياة معينة، فعندها ستكون النتيجة مختلفة.

والواقع أن تلك الحركات تُعبِّـرُ عن إيمان غاندي بأنه لا يمكن الفصل بين الوسائل والغايات، وأن الإستراتيجية لا يمكن فصلها عن الهدف، وقد قال غاندي نفسه مجادلًا:

> «الاعتقاد بأنه ليست هناك أي علاقة بين الوسائل والغايات خطأ كبير. . . الوسيلة يمكن تشبيهها ببذرة، والغاية بشجرة، هناك بالضبط العلاقة المقدسة نفسها بين الوسائل والغايات مثل العلاقة بين البذرة والشجرة . . . نحن نحصد بالضبط ما زرعنا» (1999، ص 286–287).

وسائل العنف – كما يعتقد غاندي– ستجلب في النهاية غايات عنيفة، وهذا الاعتقاد يُبـرِزُ أسس السياسات المُتخيَّلة مسبقًا (prefigurative politics)، وهي عملية أن تتفق الوسائل مع غايات السياسة، وهو ما نشهده في العديد من الحركات العابرة للحدود.

يبحث هذا الفصل في دور اللاعنف ضمن حركة العدالة العالمية؛ ليُبـرِزَ ازدياد تأكيد الحركات العابرة للحدود السياسات المُتخيَّلة مسبقًا المتجسدة في إنشاء صيغ بديلة عن المنظمات غير الهرمية واللامركزية وعمليات صنع القرار أفقيًّا، وهنا يكون للمنتدى الاجتماعي العالمي أهمية مركزية في الجمع بين الحركات العابرة للحدود وحركة العدالة العالمية على أساس مرحلي، ورغم ذلك فإن المنتدى الاجتماعي العالمي ليس حدثًا أو فعالية،

إنه فضاء سياسي، وحاضنة لمزيد من العمل العابر للحدود ضد العولمة النيوليبرالية، لبيان كيفية ممارسة الحركات العابرة للحدود للسياسات المُتخيَّلة مسبقًا في كل من المنتدى الاجتماعي العالمي وحركة العدالة العالمية، وسيبحث هذا الفصل لاحقًا دور حركة (لا فيا كامبسينا)، وهي واحدة من أكبر الحركات العابرة للحدود في العالم[2]، إلا أنه بقدر ما دعت حركة العدالة الاجتماعية ومارست اللاعنف، فقد دُمِغَت بمسحات من العنف أيضًا.

نشوء الحركات العابرة للحدود، والتكنولوجيا الرقمية، وتنظيم الشبكات

الحركات الاجتماعية العابرة للحدود ليست شيئًا جديدًا من الناحية التاريخية، حيث تعود أولى هذه الحركات – وهي حركة مكافحة الرِّق– إلى أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر (مكافحة الرِّق الدولية 2013)، وسرعان ما تبعتها حركات أخرى، منها الاشتراكية، والعمالية، والداعية إلى السلام، وحقوق المرأة، والجديد في الأمر، هو الزيادة السريعة في الحركات الاجتماعية العابرة للحدود منذ بداية القرن العشرين، فما الذي يُجبِرُ الحركات الاجتماعية على العمل خارج حدودها ويُمكِّنها من ذلك؟

يمكننا الإشارة إلى تفسيرين؛ الأول تغيُّر العلاقات بين الدولة، والمجتمع المدني، والاقتصاد، والثاني إدخال تكنولوجيا الاتصالات الرقمية الجديدة التي سهَّلت القدرة على الاتصال والتنظيم في ما وراء الحدود، وقد أسهمت تلك الظواهر في خلق صيغة جديدة من التنظيم، والتواصل من خلال الشبكات، الذي يمتلك بدوره منطقه الثقافي الخاص المختلف عن منطق منظمات الحركات الاجتماعية الهرمية التقليدية العاملة على مستوى الدولة.

وفي إشارتهما إلى العلاقات المتغيرة، يجادل كل من فوس ووليامز 2009 (Voss and Williams 2009) بأن ميزان القوى بين ثلاثة مجالات من التنظيم الاجتماعي (الدولة، والمجتمع المدني، والاقتصاد) آخِذٌ في التغيُّر، وقد توسع الثلاثة طوال القرنين التاسع عشر والعشرين من ناحية التنظيم والقوة، لكن ميزان القوة تحول لاحقًا في اتجاه

الدولة، ومعنى ذلك أن كل ما شاعت الإشارة إليه على أنه هيكل الفرصة السياسية (political opportunity structure) بات في الإمكان العثور عليه على مستوى الدولة، وحسب ما كتب فان دير هايدن، «يشير هيكل الفرصة السياسية إلى السمات الخاصة للنظام السياسي. . . ويمكن لهذا أن يفسر مختلف ذخائر العمل (action repertoires)، والصيغ التنظيمية، وتأثير الحركات الاجتماعية، ومنظمات الحركات الاجتماعية في ذلك البلد بالتحديد» (2006، ص 28)، ولذلك فإن الحركات الاجتماعية الساعية إلى التميُّز والمنفعة تستهدف هياكل الفرص السياسية على مستوى الدولة.

إلا أنه في أواخر القرن العشرين تغيَّر ميزان القوى بين المجالات الثلاثة مرة أخرى، واتَّجه هذه المرة أكثر فأكثر نحو المجال الاقتصادي مع زيادة عولمة السوق، والمال، والإنتاج، وبدأت الدولة - بالتدريج- تواجه تحديات المجال الاقتصادي وتنسحب من وظيفتها في مجال الرفاهية الاجتماعية، أما المجتمع المدني الذي كانت تسيطر عليه الدولة فبات يخضع للسوق، ومع اختراق الاقتصاد لعملية صنع قرار الدولة، بدأت الفرص السياسية على مستوى الدولة تنغلق، وبدأت منظمات المجتمع المدني - بالتدريج- في تغيير الموازين بأنشطتها، ووفق فوس وويليامز فإنَّ «النمو السريع في الحركات الاجتماعية العابرة للحدود يتطابق مع تراجع الدولة في تقديم امتيازات الرعاية الاجتماعية» (2009، ص 13).

ما تمَّ وصفه أعلاه هو نهوض الليبرالية الجديدة وتحديها للدولة، ويمكن تعريف الليبرالية الجديدة على أنها أيديولوجيا اجتماعية، سياسية، اقتصادية تؤكد أن السوق يجب أن يكون الموزع الأساسي للقيم في المجتمع وليس الدولة، وحسب قول مانويل كاستيلز، فإن ما يجعل الليبرالية الجديدة ممكنة على المستوى العالمي هو «الثورة التكنولوجية، المتمركزة حول تكنولوجيا المعلومات» (2010، ص 1)، إضافة إلى ذلك، فإن العولمة - التي مهَّدت التكنولوجيا المعتمدة على الحاسوب طريقها- باتت تتَّصف ببنية شبكية، ومنطق تنظيمي جديد أجبر الدول والشركات على العمل وفق نمط شبكي، ووسَّع كاستيلز حُجَّته لتشمل

الحركات الاجتماعية، مجادلًا بأن مقاومة العولمة النيوليبرالية باتت تأخذ شكل شبكة عمل أيضًا (كاستيلز، 2004) (Castells, 2004).

وحسب قول جوريس، فإن الناشطين في الحركات الاجتماعية الجديدة يستخدمون (المنطق الثقافي للشبكات)، الذي يوجههم نحو: (1) بناء روابط واتصالات أفقية بين عناصر مختلفة، (2) التداول الحر والمفتوح للمعلومات، (3) التعاون من خلال التنسيق اللامركزي وصنع القرارات بناءً على الإجماع، (4) العمل في الشبكات بتوجيه ذاتي. (2008، ص 11)، إضافة إلى ذلك توفر شبكات العمل تلك التي تعتمد على الحاسوب نموذجًا لظهور صيغ جديدة من الممارسات الديموقراطية المباشرة، وهي ممارسات لها سوابق في التقاليد الفوضوية، فمنطق التخيُّل المسبق في الطبيعة يتعارض مع أشكال التنظيم البيروقراطي الذي حكم المجتمع، والسياسة، والحكومة في القرن العشرين، والبيروقراطيات هي تنظيمات أفقية (من أعلى إلى أسفل)، وهياكل قيادة مركزية مع تقسيم واضح ومحدد للعمل بناءً على الخبرة، وقواعد عقلانية توضع بوصفها وسيلة للسيطرة وطريقًا لتحقيق أهداف المنظمة بكفاءة.

بالنسبة لحركة اجتماعية جديدة تتواصل على الشبكة، فإن المنظمات السياسية التقليدية القائمة على اليسار العمودي (سواء كانت أحزابًا طليعية سلطوية أُنشئت لإسقاط الدولة، أو أحزابًا ديموقراطية اجتماعية ونقابات تُحبِّذُ المسار الانتخابي للوصول إلى سلطة الدولة، أو منظمات مهنية وغير حكومية مُرتَّبة عموديًّا)، هي من بقايا حقبة أخرى ومصدر توتُّر بالنسبة لحركة العدالة العالمية. فالمنظمات الاجتماعية الجديدة المتواصلة من خلال الشبكة هي التي كانت فاعلة بوجه خاص في تحدي المنطق المسيطر على شبكات عمل الرأسمالية الليبرالية العالمية الجديدة (العولمة من فوق) من خلال العولمة من تحت، وحسب هذا المنظور، ومع إغلاق الفرص السياسية على مستوى الدولة، فقد فُتِحَت هذه الفرص في الاجتماعات ومؤتمرات القمة للمنظمات الدولية، ومن خلال بناء تحالفات بين الحركات الاجتماعية.

ينصبُّ التركيز اليوم بوضوح على نشاط المجتمع المدني على المستوى العابر للحدود، ومع تخفيف الحركات الاجتماعية الجديدة لتشديدها على الدولة بصفتها ساحة للنشاط، فقد بدأت في الوقت نفسه بتنظيم الشبكات على المستويين العالمي والمحلي، مؤكدة مشاركة غير هرمية في صنع القرار، وقد سمحت هذه الظاهرة من العمل ضمن شبكات للعديد من الحركات والفعاليات بالعمل معًا بانسجام مع الاحتفاظ بهويات منفصلة.

اللاعنف والسياسات المُتخيَّلة مسبقًا

مع تمكُّن الجهات الفاعلة من العمل معًا بانسجام خارج حدود الدولة، يرى المرء بداية لظهور المجتمع المدني العالمي مع قيم جوهرية مشتركة، منها صنع القرار بالإجماع، والديموقراطية المباشرة، واللاعنف، ويشدد بلايرز على مركزية أعمال اللاعنف بين معارضي العولمة النيوليبرالية؛ إذ يقول: «اللاعنف الفاعل هو صيغة عمل صعبة، ولكن تمَّ تبنيه من قبل أعداد متزايدة من الشبان الذين أعلنوا عن أنفسهم بأنهم رافضون» (2010، ص 78)، والواقع أنَّه قد بيَّنت استطلاعات شاملة للناشطين الأوروبيين المعترضين على العولمة النيوليبرالية: «أنَّ هناك اعتقادًا منشورًا على نطاق واسع بأن اللاعنف ضروري بشكل خاص لتجنُّب الدعاية السلبية، التي يمكن أن تؤدي إلى تآكل الدعم والحشد الشعبي» (ديلا بورتا وآخرون 2006، ص 143) (della Porta et al. 2006, p. 143)، وتأكيد اللاعنف هذا نابعٌ من الهدف النهائي للحركات العابرة للحدود، ويرتبط «بفكرة السياسة المُتخيَّلة مسبقًا، من ناحية أن الوسيلة المُتَّبعة للحصول على مجتمع غير عنيف، وغير رأسمالي، وديموقراطي بالفعل يجب أن تتفق مع الغاية» (ورد في ريبيرو 2009، ص 304) (quoted in Ribeiro 2009, p. 304)، وفي حين لم تستخدم ديلا بورتا وزملاؤها تعبير (السياسة المتخيلة مسبقا)، فإن استطلاعهم قد كشف أن الناشطين يشددون على ضرورة عدم فصل الوسائل عن الغايات، ووفق أحد الذين أجابوا على استطلاعهم وتحدَّث فيه عن أعمال اللاعنف:

> «الطريقة الوحيدة للرد إذا أردنا أن نكون مختلفين، هي أن نكون متماسكين، الوسيلة يجب أن تكون مثل الغاية. . . أي إذا بدأنا بالقول إن الغاية تُسوِّغ الوسيلة، فإن الوسيلة ستصبح

الغاية وسنقع في المصيدة» (وردت في ديلا بورتا وآخرين، 2006، ص 143) (As quoted in della Porta et al. 2006, p. 143).

ولهذا، فإن تأكيد السياسة المُتخيَّلة مسبقًا، وربطها الوسيلة بالغاية له أهمية كبيرة بالنسبة إلى المنظمات التي تعمل ضمن شبكات عابرة للحدود وإلى معارضي العولمة النيوليبرالية، وحسب ما أشَرْنا في المقدمة فثمَّة تشابه كبير في وجهات النظر المتعلقة باللاعنف التي تحدَّث عنها غاندي، وإنه يعكس أيضًا انفصالًا جذريًّا عن وجهات النظر التي بيَّنتها سياسات الحركات السلطوية التقليدية والحركات اليمينية؛ بأن الغايات منفصلة تمامًا عن الوسائل، وأن استخدام العنف ثمن مقبول يمكن دفعه.

الحركات الاجتماعية الجديدة ترفض هذه الفكرة، يقول بليرز إن الطريقة التي ينظم فيها الناشطون عملهم - تأكيدهم الذاتية، وإبداعهم، وعواطفهم، ورغبتهم في بناء عالمهم وهويتهم- مع تأكيدهم المشاركة والعمل المباشر ومعارضة التسلسل الهرمي، هي - إلى حدٍّ كبير- جزء من النشاط المُتخيَّل مسبقًا، وحسب بليرز أيضًا: «ناشطو هذه الطريقة من الذاتية يعتقدون مثلهم مثل غاندي [بأننا يجب أن نكون التغيير الذي نريد أن نراه في العالم]، ناشطو هذه الطريقة من الموضوعية توقفوا عندها وطوَّروا هذه الفكرة: [ليس الغد ما ستحدث فيه تغييرات، فهي مشهودة اليوم في الحركة]» (2010، ص 38). في السياسة المُتخيَّلة مسبقًا يُـزيل المرء الفارق بين ما نقوم به ونفعله في الوقت الحاضر، وبين الهدف الذي نريد تحقيقه، ومثال ذلك الديموقراطية التشاركية بدلًا من هدفنا، فإن الشيء المثالي هو ما يجب تجسيدُه وسَنُّه في الوقت الحاضر.

إن الوضع الذي لا يمكن فصل الوسيلة عن الغاية فيه يتحدث عن نقاش كلاسيكي حول دور الوسائل والغايات في السياسة، وهو نقاش كان غاندي مشاركًا فاعلًا فيه وَفْقَ مانتينا (2012)، فقد أثبتت الفلسفة السياسية المعيارية المعاصرة على الغايات مع اهتمام أقل بالوسائل، إلا أنه في مدة سابقة من القرن العشرين كان هناك نقاش فلسفي محتدم حول العلاقة بين الوسائل والغايات، وبالنسبة للماركسيين مثل تروتسكي، فالمهم هو عدالة الغاية،

في حين رفض غاندي تلك الفكرة، ويدَّعي مانتينا: «أنَّ غاندي - أكثر من أيِّ مُفكِّر آخر- هو من عدَّ مشكلة الوسائل وعواقبها المسألة المركزية والمحددة للحياة السياسية» (المرجع السابق، ص 3)، ولأن استخدام العنف لطرد البريطانيين من الهند قد يقود إلى دولة مركزية عنيفة، فقد اقترح غاندي بديلًا هو (سواراج - الحكم الذاتي): «القائم على قدرة القرية الهندية على تنظيم الذات». (المرجع السابق، ص7)، وهو بديل لا بُدَّ من إقامته بوصفه جزءًا من تصور حركة الاستقلال مسبقًا لما ستكون عليه الهند المستقلة.

وبذا يكون غاندي قد تنبَّأ بالأمور الرئيسة التي تشغل حركة العدالة العالمية المعاصرة، وهي - تحديدًا- إدراكها عدم إمكانية فصل الوسائل عن الغايات، وأن الوسائل العنيفة ستقود إلى غايات عنيفة، وأن المنظمات البديلة القائمة على حكم الذات والديموقراطية التشاركية يجب أن تُبنى خلال حقبة الصراع وليس بعده؛ أي إن أسس المجتمع الجديد ومعه مؤسساته البديلة يجب أن تُبنى أثناء تفكيك المجتمع القديم. واليوم، يبدو هذا واضحًا في التوتُّر القائم بين المنظمات المشبوكة ببعضها أفقيًّا، ومنظمات الجناح اليساري الأكثر تقليدية في المرتبة عموديًّا، والأحزاب المطمئنة لعملية صنع القرار من أعلى إلى أسفل.

العنف مقابل اللاعنف: السنوات الأولى من حركة العدالة العالمية

ما الوسائل التي استخدمها الناشطون في الاعتراض على العولمة النيوليبرالية؟ ثمَّة توتُّر قائم هنا بين الأغلبية التي تُفضِّل وسائل اللاعنف والأقليَّة التي تُفضِّل ما يَعُدُّه الكثيرون عُنفًا، والواقع أن العنف يحدث خلال الاحتجاجات من قبل المشاركين فيها والشرطة، وفي السنوات الأولى من الاحتجاجات على العولمة النيوليبرالية خلال عَقْدي السبعينيات والثمانينيات، واستمرارها بوصفها عنصر أقليَّة في تنظيم الحركة الاجتماعية العابرة للحدود منذ ذلك الحين، ومثال ذلك أنه حين بدأ صندوق النقد الدولي خلال عَقْد السبعينيات في إقحام السياسات النيوليبرالية (ولاسيَّما برامج التصحيح الهيكلي التي فرضت الخصخصة، وخفض القيود التنظيمية، والتقشُّف على جنوب العالم؛ بسبب

عدم قدرته على تسديد قروضه)، حدثت موجات من الاحتجاجات عُرِفَتْ بأعمال شغب صندوق النقد الدولي، وفي العام 1976 حدثت أعمال شغب بسبب الطعام في مصر والبيرو استُخدمت فيها مجموعة كبيرة من الإستراتيجيات، منها الإضرابات، والمظاهرات الحاشدة في الشوارع، وأعمال النَّهب، والعنف في الشوارع (والتون وسيدون 1994) (Walton and Seddon 1994)، وأصبحت أعمال الشغب ضد صندوق النقد الدولي عَرَضيَّةً منذ ذلك الحين، مثل الشغب في اليونان في العام 2011 حين فرض صندوق النقد الدولي والاتحاد الأوروبي إجراءات تقشُّف قاسية على الحكومة اليونانية.

وخلال عَقْد التسعينيات من القرن الماضي والسنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين، تواصل نموُّ عدم الرضا عن العولمة النيوليبرالية، وبدأ ناشطون - ومنهم أنصار البيئة، والنقابات، ومجموعات من السكان الأصليين- في تنظيم أنفسهم عبر الحدود؛ للاحتجاج على إبرام اتفاقات جديدة للتجارة الدولية، منها اتفاق التجارة الحرة المقترح لأميركا الشمالية (النافتا)، والاتفاق متعدد الأطراف حول الاستثمار، وقد جمعت مؤتمرات الأمم المتحدة - بشأن المرأة والبيئة- الآلاف من الناشطين معًا، وتحسَّنت الاتصالات، وبدأت التحالفات العابرة للحدود بين الحركات الاجتماعية في الظهور، وأصبحت عولمة الشركات - بشكل متزايد- الإطار الرئيس الذي جمع مختلف المنظمات والحركات.

لقد وجد ناشطو المجتمع المدني فرصًا سياسية جديدة في اجتماعات (أو مؤتمرات القمة) المنظمات الدولية الحكومية التي من الممكن أن تخدمهم بوصفهم وكلاء للعولمة النيوليبرالية، ومثال ذلك البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية، والثمانية الكبار، وهم غالبًا ما يلتقون في الوقت نفسه الذي تجتمع فيه تلك القمم الاقتصادية لتشكيل شبكات، ومناقشة الحملات المستقبلية، والاعتراض على السياسات الليبرالية الجديدة.

استُلهم النشاط العابر للحدود المعارض للعولمة النيوليبرالية من حدثين رئيسين في عَقْد التسعينيات، الأول انتفاضة زاباتيستا (السكان الأصليين من المايا) في شاياباس -

وهي ولاية تقع جنوب المكسيك- ضدَّ اتفاق النافتا، والثاني انتفاضتهم من (معركة سياتل) احتجاجًا على اجتماع وزاري لمنظمة التجارة العالمية في العام 1999، فهذان الحدثان مُهِمَّان لأنهما عطَّلا تقدُّم العولمة النيوليبرالية، وأفسحا المجال لظهور المنتدى الاجتماعي العالمي لاحقًا، الحدثان حرَّكا النقاش حول دور العنف مقابل اللاعنف في المقاومة العابرة للحدود.

سياتل بوصفها حدثًا عابرًا للحدود

المسألة المتعلقة باستخدام العنف كانت واضحة بشكل خاص خلال عملية التنظيم ضد الاجتماع الوزاري لمنظمة التجارة العالمية في سياتل عام 1999، فهي المنظمة البغيضة بالنسبة للناشطين المناهضين للعولمة؛ حيث إن منظمة التجارة العالمية هي المنظمة الحكومية الدولية الرئيسة المسؤولة عن تحرير التجارة العالمية والاستثمار، وما أُطلِقَ عليه (معركة سياتل) كان نتيجة تنظيم محلي، ووطني، وعابر للحدود، وقد أصبح الحدث التكويني والمُحفِّز للناشطين المناهضين لعولمة الشركات الكبرى (سميث 2001) (Smith 2001). إنَّ معظم الحثِّ على التنظيم جاء من هيئات رسمية لها علاقات مكثفة عابرة للحدود، مثل (المواطن العام) التي أسَّسها رالف نادر، ومجلس الكنديين، وشبكة العالم الثالث الماليزية، الذين كانوا ضمن سبع مجموعات نسَّقت حملة سياتل، وحافظت على اتصالات منتظمة بينها، وتعقد مؤتمرًا كلَّ أربعة أسابيع (سميث و سميثي 2004) (Smith & Smythe 2004).

لقد شملت المنظمات العابرة للحدود التي شجَّعت حملة سياتل كلًا من (لا فيا كامبسينا)، و(السلام الأخضر)، والمنتدى الدولي حول العولمة، وأصدقاء الأرض، وساعدتهم منظمات وشبكات أخرى كشبكة العمل المباشر التي لها روابط إقليمية أقوى مع كندا، وكانت شبكة العمل المباشر قد تشكَّلت لتنسيق العمل المباشر غير العنيف في الاحتجاجات ضد منظمة التجارة العالمية، واعتمدت تلك المجموعات جميعها على الإنترنت لتداول المعلومات حول الاجتماعات الوزارية وحشد الجهود. وعلى الأرض، قدَّمت

النقابات الوطنية، والكنائس، والمدارس دعمًا لوجستيًّا مهمًّا للآلاف من المشاركين في المسيرة الافتتاحية.

الصندوق 1.10 حركة الزاباتيستا والتنظيم العابر للحدود

حركة زاباتيستا التي استخدمت الإنترنت الذي ظهر حديثًا بمهارة للوصول إلى الدعم الدولي وحشده، وكانت مصدر إلهام عظيم للتنظيم العابر للحدود، ولاسيَّما حركة العدالة العالمية والناشطين الذين شاركوا في احتجاجات سياتل.

اتَّخذت حركة زاباتيستا موقفًا وقالت: (كفى) للسياسات الليبرالية الجديدة لاتفاق التجارة الحرة مع أميركا الشمالية، فتلك السياسات كانت ستجعل الملكية الجماعية للأرض أمرًا مستحيلًا، وستهدد هويتهم.

وفَّرت حركة زاباتيستا بالموقف الذي اتَّخذته إطارًا رئيسًا للناشطين العابرين للحدود، الذين أشاروا بوضوح إلى العولمة النيوليبرالية بوصفها هدفهم الأول، وفي حين رفض معظم الناشطين استخدام الزاباتيستيين للقوة خلال الانتفاضة (وهو أمر لم يستخدموه منذ العام 1994)، فقد جذبتهم السياسة الثقافية للحركة، التي تؤكد التنوع، والسياسات الديموقراطية المباشرة، وصنع القرار أفقيًّا، والعمل السياسي من دون قيادة، والسياسة المُتخيَّلة مسبقًا لإقامة مؤسسات بديلة أثناء مسيرتهم.

أُعجِبَ الناشطون الدوليون أيضًا بنزعة الزاباتيستيين الدولية، ففي كانون الثاني/ يناير من العام 1996 دعت حركة زاباتيستا إلى اجتماع قارِّي للبدء بتشكيل شبكة عالمية من مقاومة العولمة النيوليبرالية، وقد جذب اجتماعها الأول نشطاء عابرين للحدود من أكثر من (50) دولة، جاؤوا إلى الأدغال المكسيكية وطرحوا إقامة شبكة عالمية لمحاربة الليبرالية الجديدة (جوريس 2008) (Juris 2008).

تراوح عدد مَنْ ذهبوا إلى سياتل للاعتراض على الاجتماع الوزاري لمنظمة التجارة العالمية بين (20,000) و (30,000) ناشط (بورنستاين 2009) (Bornstein 2009)، منهم الشبكات المهتمة بالبيئة، والمنظمات النسائية، والمزارعون والسكان الأصليون، وناشطو العدالة الاقتصادية والديون، ومنظمات العمال، وناشطو العمل المباشر غير العنيف، و(الكتلة السوداء) [تجمُّع مكوَّن من فوضويين متشددين وجماعات مناهضة للرأسمالية]، وناشطو وسائل الإعلام الشعبية (جوريس 2008) (Juris 2008)[3]، والفارق الرئيس بين العمال

في سياتل كان بين المنتمين لمنظمات ذات صبغة رسمية أكثر، والمنتمين لتجمعات تميل لأن تكون ذات تنظيم أفقي وتؤمن بالسياسات المُتخيَّلة مسبقًا، وإن القادة والخبراء في المنظمات ذات الصبغة الرسمية سيطروا من ناحية عدد المتحدثين في الندوات، وورش العمل، وفي الحلقات الدراسية العديدة، وفي الضغط على مركز المؤامرات نفسه، أما في الشارع، فقد تكوَّنت الحشود - التي شاركت في أعمال اللاعنف المباشرة من أجل منع عقد الاجتماع الوزاري- من الشبان المنتمين لمجموعات متقاربة مرتبطة بشبكة العمل المباشر، منها شبكة الغابات المطرية، وجمعية روكوس، وقد مثلت المجموعات المتقاربة التخيُّل المُسبَق في العمل، مع وحدات مستقلة يتراوح عددها بين (5) و (15) ناشطًا قرَّروا ديموقراطيًّا وبالإجماع طريقة مشاركتهم في العمل المباشر، ومثال ذلك إغلاق الشوارع (ستارهوك 2002) (Starhawk 2002). لقد كانت شبكة العمل المباشر (وجمعية روكوس) - طوال أشهر قبل اجتماع سياتل- تنظم دورات في المقاومة اللاعنيفة، وبوجه خاص في ما يجب عمله لدى مواجهة الشرطة لهم واعتقالهم (ديلا بورتا وآخرون، 2006) (della Porta et al. 2006)، فكان يتعيَّن على المجموعات المرتبطة بشبكة العمل المباشر أن توافق على عدم استخدام العنف البدني أو اللفظي، أو المخدرات، أو الكحول، وعدم تحطيم الممتلكات (كونواي 2003) (Conway 2003).

شاركت تلك المجموعات في عدد من الأعمال - معظمها غير عنيف-، مثل الحلقات الدراسية، والمنتديات، والمسيرات والتجمعات العمالية، والعمل المباشر، بما في ذلك إغلاق الشوارع، ومن الإستراتيجيات التي استخدموها لإغلاق الشوارع (الربط)، حيث كان الناشطون يربطون أنفسهم ببعضهم بطريقة تجعل الشرطة بحاجة لوقت أطول لفصلهم عن بعض، وأثناء ربطهم كانت الشرطة ترش الغاز المسيل للدموع في أعينهم، وقد منعت أساليب المحتجين الاجتماع الوزاري من الانعقاد في اليوم الأول، فعند بدء الاجتماع قام ناشطون من إحدى المنظمات غير الحكومية - التي سُمِحَ لها بحضور حفل الافتتاح- باعتلاء منبر الخطابة فتمَّ اعتقالهم لاحقًا، والكثير ممَّن جرى اعتقالهم خلال الاحتجاجات رفضوا التعاون وسدوا السجون ورفضوا إعطاء أسمائهم حتى يتم خفض الحكم عن جميع الموقوفين، إلا أنه حدثت

بعض أعمال العنف أيضًا، وذلك مع قيام أعضاء (الكتلة السوداء) بتحطيم الممتلكات، الذين ادَّعوا أنهم لم يبدؤوا في استهداف متاجر الشركات إلا بعد أن بدأت الشرطة دورة من المواجهات العنيفة ضدَّ الذين يُغلِقون الشوارع (سميث 2001) (Smith 2001).

لقد كان المحتجون في سياتل مسالمين وغير عنيفين، في حدث وُصِفَ بأنَّه مشهود، ومبتكر، وأجواؤه احتفالية، تظاهر المحتجون بطرق نابضة بالحيوية لإيصال رسالتهم إلى عامة الناس، وشمل ذلك لافتات جذَّابة تُروِّج للاحتجاجات، وعروضًا مسرحية في الشوارع، وتعليق شعارات ترمز إلى قضيتهم، إلا أن أعمال الكتلة السوداء خلقت انقسامًا في صفوف الناشطين في سياتل، الذين حمَّلوا أعضاء الكتلة مسؤولية قيام الشرطة بتكثيف قمعها ضد المحتجين السلميين، والذي كان قاسيًا أصلًا، وقاد هذا إلى نقاش متواصل حول تنويع الإستراتيجيات، والفصل بين قادة الاحتجاجات من شبكة العمل المباشر والمنظمات غير الحكومية المنظمة أفقيًّا، مثل (حركة سييرا كلوب) عن ناشطي الحركات المتطرفة والمتشددة، فقد أصرَّت الحركة على احترام تنوُّع الإستراتيجيات بوصفه «قاعدة للوحدة غير قابلة للتفاوض». (كونواي 2003، ص507) (Conway 2003, p. 507)، إلا أن طلب تعددية الإستراتيجيات وقف حائلًا دون الاتفاق على اللاعنف الذي اقترحته شبكة العمل الحر، وقد بدا نموذج التنوُّع واضحًا في ما بعد من الحشود العابرة للحدود التي اجتمعت في مدينة كيبيك في نيسان/ أبريل من العام 2001، والمتعلقة باقتراح اتفاق التجارة الحرة للأميركيتين، وبلغت (60,000) مُحتَجٍّ كانوا في غالبيتهم العظمى غير عنيفين، إلا أن بعض أعمال التخريب الرمزية التي قامت بها أقليَّةٌ من المحتجين طغت على الاحتجاجات الحاشدة.

حدث توتُّر مماثل بين ناشطي اللاعنف والكتلة السوداء خلال اجتماع مجموعة الثمانية في جنيف في تموز/ يوليو من العام 2001، وفي أماكن أخرى كان الحشد العالمي مفيدًا في بناء التحالفات والعمل (سميث وآخرون 2008) (Smith et al. 2008)، لكنه تعرَّض للتشويه بسبب قيام أقلية بتحطيم الممتلكات، وبسبب الاستخدام المفرط للقوة من قبل الشرطة، وقد تزايد إحساس الناشطين بضرورة الذهاب لما هو أبعد من اللقاءات والاحتجاجات في

أماكن اجتماع المنظمات الحكومية الدولية التي تُسهِّل عمل العولمة النيوليبرالية، والانتقال من شجب ما هم ضدَّه إلى صياغة (رؤية واضحة لما يقاتلون من أجله) (المرجع السابق، ص 23).

هذا التصور القائم على أنَّ الاحتجاج ليس كافيًا، والذي غالبًا ما يقود إلى العنف من قبل بعض المحتجين أو بسبب الشرطة، وأنَّ من الضروري صياغة بدائل، قاد في نهاية الأمر إلى تشكيل أول منتدى اجتماعي عالمي في كانون الثاني/ يناير من العام 2001، ومن الأمور التي كان لها دور إيجابي في تحفيز إقامة المنتدى، تجربة إقامة قمم مقابلة خلال القمم التي تعقدها المنظمات الحكومية الدولية ويتم فيها التواصل من خلال الشبكات وبناء التحالفات، وإطلاق الحملات، وقد استلهم المنتدى الاجتماعي العالمي ثقافته السياسية ونزعته الدولية بوجه خاص من حركة زباتيستا (انظر الصندوق 1.10)، ليعمل مُحفِّزًا على الحشد العابر للحدود ونشر السياسة المُتخيَّلة مسبقًا، ولكن من دون استخدام العنف، وحسب قول سميث وزملائها فإن: «الشبكات المستلهمة من الفكر الزباتيستي . . . وفَّرت بنية تحتية من الناس، والمنظمات، والأفكار كانت ضرورية لظهور المنتدى الاجتماعي العالمي» (2008، ص 21)، إضافة إلى ذلك زوَّد الزباتيستيون المنتدى الاجتماعي العالمي بشعاره الرئيس (من الممكن إقامة عالم آخر)، والمثير للسخرية أنه لم يُسمَح للزباتيستيين قط بحضور المنتدى الاجتماعي العالمي؛ نظرًا لمشاركتهم في أعمال عنف.

تطور المنتدى الاجتماعي العالمي

يشكل المنتدى الاجتماعي العالمي حركة أكثر نضوجًا من حركة العدالة العالمية؛ حيث إنه انتقل من إدانة العولمة النيوليبرالية إلى الدعوة للتغيير، وفي النهاية إلى توضيح وسائل إحداث ذلك التغيير (بنسكي 2010) (Pinsky 2010)، وقد عُقِدَ أول منتدى في كانون الثاني/ يناير من العام 2001 في بورتو أليجره – البرازيل، ليكون كيانًا مقابلًا للمنتدى الاقتصادي

العالمي المنعقد في دافوس – سويسرا، لقاء كبار المسؤولين في الشركات والدول الذين يُروِّجون للسياسات الليبرالية الجديدة.

نَمَت المنتديات سريعًا من حيث الحجم، ووصل العدد إلى (150,000) في المنتدى الاجتماعي العالمي عام 2004 المنعقد في مومباي، وهو آخر منتدى عُقِدَ على أساس سنوي، فالمنتديات تُعقَدُ الآن على أساس نصف سنوي، وتواصل تسجيل أعداد كبيرة من الناشطين، وقد أصبحت المنتديات الإقليمية، والوطنية، والمحلية من الأمور العادية.

فما الذي يجذب الناشطين إلى المنتدى الاجتماعي العالمي؟ أولًا : يعود السبب – إلى حدٍّ بعيد– إلى سياستها المُتخيَّلة مسبقًا، وإلى تأكيد الديموقراطية التشاركية المُرتَّبة أفقيًّا مع تنظيم القواعد الشعبية. ثانيًا: تعطي هذه المنتديات قيمة عظيمة للانفتاح، والتنوُّع، والشمولية، والتعددية، وأولويات الجهات الفاعلة في المجتمع المدني، والتواصل من خلال الشبكات، وضرورة إيجاد بدائل، فالجماعات المتباينة يوحدها التزامها بمبدأ اللاعنف وبنود معارضة الليبرالية الجديدة وسلطة الشركات الكبرى، إلا أن هناك توتُّرًا في بعض المجالات الأخرى، فقد تميَّز المنتدى الاجتماعي العالمي بالتوتُّرات القائمة بين الجماعات المستقلة المُرتَّبة أفقيًّا، والمنظمات غير الحكومية المهنية المُرتَّبة من أعلى إلى أسفل ويقودها خبراء وأكاديميون، والتي تفضل نهج الحوار، والعقل، والتعليم على النشاط المباشر (بليرز 2010) (Pleyers 2010)، إلا أنه بمرور الوقت، أصبحت المجموعات المُرتَّبة أفقيًّا أكثر بروزًا، والأمر الذي يحظى بأهمية خاصة، هو أن المنتدى الاجتماعي العالمي ليس جهة فاعلة بل فضاء لنشر الأفكار، والإستراتيجيات، والبدائل، إضافة إلى ذلك يشجع ميثاق مبادئ المنتدى الاجتماعي العالمي المشاركين فيه على التفكير والعمل في تشكيلة من المستويات، من المحلي إلى العالمي، وكلها مهمة جدًّا للحشد العابر للحدود.

تنوُّعها يعني أن هناك تشكيلة واسعة من الصراعات التي تجد لها تعبيرًا في المنتدى الاجتماعي العالمي، إلا أن في تلك الصراعات – حسب سوسا سانتوس– نقطة اتفاق واحدة هي (الإجماع على اللاعنف)، ولكن حين يتبنَّى المنتدى اللاعنف، مع توقع أن يعزز النشاط

غير العنيف العابر للحدود، فإنَّه حتى اللاعنف مفتوح على تفسيرات متباينة للغاية. (سوسا سانتوس 2008، ص 247) (Sousa Santos 2008, p. 247)، وقد أوضح المنتدى الاجتماعي العالمي أن الذين يلجؤون إلى العنف، أو يدافعون عنه، أو ينتمون إلى منظمات عسكرية، قد لا يُسمَحُ لهم بحضور المنتدى، وهذا يشمل الزباتيستيين؛ لأنهم يُعرِّفون عن أنفسهم بوصفهم جيش زباتيستا للتحرير الوطني[4].

لا فيا كامبسينا: مشاركة عابرة للحدود في حركة العدالة العالمية

(لا فيا كامبسينا) هي حركة اجتماعية وإحدى أكثر المشاركات في المنتدى الاجتماعي العالمي وحركة العدالة العالمية، ولها اتصالات دولية من خلال الشبكة مكونة من فلاحين ومزارعين صغار ومتوسطين ومجموعات من السكان المحليين، وهي مدافع قوي عن إستراتيجيات اللاعنف، «ويَعُدُّها الكثيرون أنها الحركة الاجتماعية العابرة للحدود الأكثر أهمية في العالم» (مارتينيز- توريس وروسيت 2010، ص 150) (Martinez-Torres & Rosset 2010, p. 150)، ولها منظمات تابعة في (70) دولة تمثل (200) مليون شخص.

تنبع أهمية (لا فيا كامبسينا) ليس من كبر حجمها، بل من معارضتها الحازمة للعولمة النيوليبرالية وسياساتها المُتخيَّلة مسبقًا التي تؤكد الديموقراطية الأفقية، ومن إيجاد بدائل، ومن التنظيم (من أسفل إلى أعلى)، ومن إصرارها على إشراك المرأة.

تعرَّف العالم كله إلى حركة (لا فيا كامبسينا) من خلال مشاركتها المباشرة في سياتل عام 1999، ومنذ ذلك الحين سخَّرت المنتدى الاجتماعي العالمي بمهارة لبناء حركتها النامية وتوسيعها، مُركِّزةً على حملتها الأساسية المتعلقة بسيادة الغذاء (food sovereignty)، وقد أُنشِئَتْ حركة (لا فيا كامبسينا) ردًّا على السياسات الزراعية النيوليبرالية التي أُدخلت خلال عَقْد الثمانينيات، وكان من نتيجة تلك السياسات أن بدأت مجموعة من الحكومات في جنوب العالم بسحب الدعم المُقدَّم للفلاحين المحليين والزراعة الأسرية، رغم تأكيدها الإنتاج للاستهلاك المحلي، وقد عَدَّ الكثيرون السياسات الزراعية النيوليبرالية تهديدًا

لأسباب عديدة أخرى، منها إصرارها على التجارة الحرة، ومعاملتها للغذاء على أنه سلعة، وإعطاء الأفضلية للتصدير على الإنتاج المحلي المستدام، وإغراق أسواق دول الجنوب بالطعام الرخيص من إنتاج مزارع مدعومة في الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي.

الصندوق 2.10 لاهوت التحرير

كان للاهوت التحرير دور مركزي في تشكيل المنتدى الاجتماعي العالمي، وأصبحت الكنيسة الكاثوليكية البرازيلية خلال سنوات حكم الديكتاتورية العسكرية (1964– 1985) «المصدر التنظيمي المفيد والأكثر مشروعية على نطاق الأمة لقوى المجتمع المدني المعارضة». (فون سينر 2007، ص 174) (von Sinner 2007, p. 174)، وأصبحت بفعلها هذا تقدُّمية لاهوتيَّة، مُطلِقَةً ما يُعرَفُ بِـ (لاهوت التحرير)، الذي طغى على أفكار أفراد، ومنظمات، وحركات اجتماعية مهمة ارتبطت بإنشاء المنتدى الاجتماعي العالمي.

إن لاهوت التحرير الممارس في البرازيل هو لاهوت الفقراء والمضطهدين، وقد تأثر (لاهوت التحرير) بشكل واضح بغاندي ومارتن لوثر كينج الابن، وتنصَّل من جميع أشكال العنف الهيكلي، وعنف القمع العسكري، و العنف الثوري (دير 2003، ص 6) (Dear 2003, p. 6).

عَدَّ الدوم هيلدر كامارا رئيس أساقفة أوليندا ورسيف الراحل – وهو لاهوتي تحرير ومدافع عن الفقراء– أنَّ عنف الفقر هو مشكلته اليومية الأساسية، فكان ينظر إلى غاندي على أنَّه رسول، وكان مثله فلم يميز بين الوسائل والغايات، وقال محذرًا: «العنف ليس الجواب الحقيقي على العنف، وإذا قوبِلَ العنف بالعنف فإن العالم كله سيسقط في دوامة العنف، وإن الجواب الحقيقي الوحيد على العنف هو امتلاك الشجاعة لمواجهة الظلم الذي يشكل العنف» (1971، ص 55).

وقد استمدَّ فراشيسكو (شيكو) واتيكار (Francisco (Chico) Whitaker) – أحد مؤسسي المنتدى الاجتماعي العالمي– إلهامه اللاهوتي من رئيس الأساقفة هيلدر كامارا الذي سبق وأن عمل معه، فواتيكار خدم في لجنة العدل والسلام في الأسقفية الكاثوليكية البرازيلية، وهي واحدة من ثماني منظمات يُعزى إليها الفضل في تنظيم أول منتدى اجتماعي عالمي.

وحيث إنَّ الليبرالية الجديدة تعمل على مستوى عالمي، فإن الفلاحين في جميع أنحاء العالم يواجهون تهديدًا مماثلًا لوجودهم، فاجتمعوا – ردًّا على ذلك– مع مزارعين صغار، وشعوب محلية، وعمال مزارع من الأمريكيتين، ومن أوروبا، وآسيا، وأفريقيا في مونس–

بلجيكا، في نيسان/ أبريل من عام 1993، وأنشؤوا (لا فيا كامبسينا)، ليس لمحاربة الليبرالية الجديدة وحسب، بل لإيجاد نموذج بديل بات يُعرَف منذ ذلك الحين بعبارة سيادة الغذاء (ديزماريه ونيكولسون 2010) (Desmarais & Nicholson 2010).

كانت (سيادة الغذاء) من صميم حملات (لا فيا كامبسينا)، وكانت تمثل نقيض النموذج الليبرالي الجديد، وبدلًا من إنتاج الغذاء للتصدير فإنها تفضل إنتاجه للسوق المحلي، والأسعار العادلة بدلًا من المنخفضة، والغذاء بوصفه حقًّا إنسانيًّا بدلًا من كونه مجرد سلعة، إضافة إلى الحصول على طعام مُغَذٍّ بأسعار معقولة، واستخدام أساليب الزراعة العضوية، والاحتفاظ بحق أبناء الريف في الإنتاج، والإصلاح الزراعي الحقيقي (مارتينيز- توريس وروسيت 2010) (Martinez-Torres & Rosset 2010).

من ناحية الإستراتيجيات، تقول (لا فيا كامبسينا) إنه ينبغي لها السعي لتحقيق أهدافها باستخدام أكثر إستراتيجيات اللاعنف المتاحة فاعلية، وتتراوح بين رفض المشاركة، وتوجيه العمل المباشر إلى التعاون التام، والتفاوض. (حسب ما ورد في بوراس 2004، ص 21) (as quoted in Borras 2004, p. 21)، وربما كان أحد أسباب تفضيل اللاعنف بوصفه إستراتيجية - في سنواتها الأولى- هو أن الحركات الفلاحية من أمريكا اللاتينية كانت القوة المحركة وراء إنشاء (لا فيا كامبسينا)، ولذلك تأثرت تلك الحركات (ومنها [حركة العمال الريفيين بلا أرض] التي ناقشناها بتوسُّع في الفصل التاسع) بلاهوت التحرير، وإيمانه باللاعنف (مارتينيز- توريس وروسيت 2010) (Martinez-Torres & Rosset 2010)، ويمكن تقسيم إستراتيجية اللاعنف التي تتَّبعها حركة (لا فيا كامبسينا) إلى إستراتيجيات خارجية وداخلية؛ حيث تمثل الخارجية المعارضة المباشرة لليبرالية الجديدة، وتشتمل على أساليب مثل (المظاهرات الحاشدة، والمقاطعة، والعمل المباشر)، في حين تشتمل الإستراتيجيات الداخلية على (التعاون والتآزر). (ورد في بوراس 2004، ص 21) (asquoted in Borras 2004, p. 21).

استخدمت الإستراتيجيات الخارجية في هياكل الفرصة السياسية، مثل الاجتماعات الوزارية لمنظمة التجارة العالمية التي تم تجاهل مطالب الحركة فيها، وفي معركة سياتل شاركت (لا فيا كامبسينا) في الأعمال المباشرة التي حاولت منع وصول المندوبين إلى الاجتماع، وقد وبَّخ جوسيه بوف - وهو مزارع فرنسي وزعيم اتحاد الفلاحين/ ثاني أكبر نقابة للمزارعين في فرنسا، وعضو في حركة (لا فيا كامبسينا)- أحد المعترضين الرئيسين المشاركين من الحركة في سياتل، وهو الشخص الذي قاد مجموعة من المزارعين الآخرين لحصار مطعم ماكدونالدز في المدينة، الذي تَعُدُّه الحركة رمزًا للطعام السيء، ووبَّخ شركة البذور العملاقة (مونسانتو)؛ لتمريرها أجبان روكفور (صحية) من فرنسا، والتي كانت مُهرَّبة (حسب ما ورد في رواية عن خلاف تجاري مع الولايات المتحدة)، وقد استقطب بوف انتباه وسائل الإعلام وعزَّز مكانته بوصفه رمزًا لحركة العدالة العالمية (نورثكت 2003) (Northcutt 2003)، لكنَّ أعمال بوف في فرنسا قادته إلى السجن مدة قصيرة، وهو يعترف بتأثير مارتن لوثر كينج فيه، ويصور نفسه على أنه غاندي فرنسي مستعد لاستخدام اللاعنف، مُشدِّدًا على أنه ليس في وسع المرء أن يميز الوسائل عن الغايات، فقال: «ليس في وسعك أن تغير العالم من دون أن تغير حياتك» (بوف 2001، ص 1).

وفي المواقع الأخرى التي تلقى فيها ترحيبًا - كالأمم المتحدة والمنتدى الاجتماعي العالمي- تؤكد (لا فيا كامبسينا) أهمية التآزر والتعاون، فقد كانت موجودة في المنتدى الاجتماعي العالمي منذ البداية، وهي عضو في مجلسه العالمي الحاكم، وتعمل من أجل توسيع الحركة، وتشدد على أهمية سيادة الغذاء، وتعقد ورش عمل يتبادل فيها الفلاحون خبراتهم ويتواصلون على الشبكة للتخطيط لأعمال واعتراضات مستقبلية، وبالنسبة إلى العديد من زعماء الفلاحين، فإن المشاركة في المنتدى الاجتماعي العالمي هو تجربة تكوينية، وقد قال أحد زعماء الفلاحين الأفريقيين:

> «في العام 2002 ذهبنا إلى منتدى الفلاحين في حركة (لا فيا كامبسينا) (LVC) المنعقد في المنتدى الاجتماعي العالمي في بورتو أليجره، وكانت مشاركتنا في اجتماعات (لا فيا كامبسينا) المسائية خلال اجتماعات المنتدى، حيث كان جميع ممثلي الحركة الموجودين

هناك يناقشون ويلخصون أعمال ذلك اليوم، ويخططون إستراتيجيتنا الجماعية لليوم التالي؛ ما هو المُعرَّض للخطر؟ وما الذي نريد تحقيقه؟ وكيف يمكننا فعله؟ وما الذي سيفعله كل واحد منَّا؟.. واو ! هذا هو المقصود بكلمة حركة، وأن تكون حركة دولية !». (ورد في مارتينيز- توريس وروسيت 2010، ص161) (Quoted in Martinez-Torres & Rosset 2010, p. 161).

وسَّعت حركة (لا فيا كامبسينا) - في منتديات عديدة- جهود تواصلها من خلال الشبكات، لتشمل الحركات النسائية وحركات العدالة المناخية، واليوم نستطيع القول بأن (لا فيا كامبسينا) تحتلُّ مركز القلب من حركة العدالة العالمية، وتتمتع بنجاح متزايد.

نجاحات حركة العدالة العالمية، وتحديات

بدأت المقاومة العابرة للحدود ضدَّ العولمة النيوليبرالية وقوة الشركات العالمية قبل أكثر من (30) سنة، ولم تزل مستمرة، فما مدى النجاح الذي حققته هذه المقاومة؟

إن قياس نجاح حركة اجتماعية ليس بالمهمة السهلة، ويصعب أكثر إذا ركَّز المرء على مدى ما أنجزته من أهدافها، فقد يستمرُّ نشاط المقاومة مدة طويلة من الوقت قبل أن تحقق أهدافها، إلا أنه إذا بدأ المرء بمقياس آخر للنجاح (مقياس داخلي للنمو والحشد)، عندها تكون المقاييس مختلفة.

ما أصبح لاحقًا حركة العدالة العالمية كانت بداية جذوره في جنوب العالم، ولم ينتقل إلا بعد مدة إلى أوروبا، وبعد مدة أطول إلى الولايات المتحدة وكندا، وتتَّخذ حركة العدالة العالمية أشكالًا عديدة، بعض أوجهها أكثر امتدادًا عبر الحدود من الأخرى، وبعضها مُتجذِّرٌ محليًّا لكن مع روابط عالمية وعابرة للحدود. وفي عصر المعلومات، تنتشر إستراتيجيات وطرق الاحتجاج سريعًا عبر الحدود، ومع التحسينات التي طرأت على تكنولوجيا الاتصالات في عقد التسعينيات، صار في وسع الناشطين تنظيم أنفسهم بسهولة أكبر، وكان من نتيجة ذلك بدء القواعد الشعبية والحركات العابرة للحدود بالتوسع في مختلف أنحاء الكرة الأرضية، وهكذا توسَّعت حركة العدالة العالمية وانتشرت الاعتراضات ضد الليبرالية

الجديدة، وحسب ما يبين هذا الفصل، فإنَّ الإستراتيجيات وطرق الاحتجاج منتشرة في أماكن عقد القمم واللقاءات، سواء في لقاء تشياباس- المكسيك، أو المنتدى الاجتماعي العالمي، ومثل ذلك فقد استمدَّت حركة العدالة الاجتماعية إلهامها الرئيس ومثلها الأعلى وإستراتيجيتها الأساسية (اللاعنف) من جنوب العالم، من حركات الاستقلال في الهند، واللاعنف - بوصفه مثلًا أعلى- مبدئي ويطمح لأن يُنشئ ثقافة بديلة تؤكد أهمية استخدام وسائل عادلة لتحقيق غايات عادلة، في عالم يكون العنف فيه غير مشروع، أما - بوصفه إستراتيجية- فهو وسيلة برغماتية يمكن بوساطتها مواجهة القوى الظالمة المسيطرة، وقد انتشر اللاعنف شمالًا بوصفه مثلًا أعلى وإستراتيجية، مُحقِّقًا نجاحه الملحوظ في حركة الحقوق المدنية الأمريكية، ثم انتشر مُجدَّدًا في جنوب العالم على شكل (لاهوت التحرير)، ليصبح لاحقًا المثل الأعلى الرئيس لحركة العدالة العالمية.

ومع استمرار حركة العدالة العالمية في النمو والتوسع والانتشار في مزيد من الأماكن في العالم، انتشرت أفكار السياسة المُتخيَّلة مسبقًا واللاعنف، ويمكن النظر إلى حركة (الساخطون - Indignados) (حركة 15- م الإسبانية)، وحركة (احتلوا) للعام 2011، على أنها احتجاجات ضدَّ تنامي عدم المساواة وضدَّ التقشُّف الناتج عن العولمة النيوليبرالية، وقد اهتمت الحركتان - مثل المنتدى الاجتماعي العالمي- بإنشاء فضاء عام، ومناقشة بدائل النظام الاقتصادي الحالي، وكلتاهما تميَّزتا بالسياسة المُتخيَّلة مسبقًا مع تأكيد اللاعنف، إضافة إلى ذلك فإنَّ احتجاجات الربيع العربي التي واجهت حُكمًا سلطويًّا قاسيًا، كانت تتواصل بوساطة شبكة الإنترنت وتترابط أفقيًّا وتؤكد اللاعنف.

باختصار، بات الخيار المُفضَّل لدى الذين يعارضون الظلم السياسي والاقتصادي ليس الاعتماد على الأحزاب السياسية اليسارية الطليعية، بل على تأكيد سياسة اللاعنف المُتخيَّلة مسبقًا، كما تبين حركة (لا فيا كامبسينا)، فمرونة سياسة القواعد الشعبية المُتخيَّلة مسبقًا وقوتها تسير في اتجاه مضاد لمعظم المُنظِّرين السياسيين، الذين يقولون إن نماذج الديموقراطية التي تتطلب مشاركة عريضة ليست واقعية بالنظر إلى قدرات

السكان وميولهم، وحجم الدولة ونطاقها، والأنظمة الواصلة بين الدول، إلا أن العكس هو الصحيح، مع انتشار السياسة التشاركية (مينسر 2008) (Menser 2008).

وعلى مستوى وسيط أكثر، كانت هناك نتائج ناجحة في حركة العدالة العالمية، ومثال ذلك أن هدف المحتجين في سياتل كان تعطيل الاجتماع الوزاري لمنظمة التجارة العالمية، وهو ما فعلوه (وولرستاين 2011) (Wallerstein 2011)، وإلى عهد قريب كانت حركة (احتلوا) ناجحة رغم الاحتجاج على فشلها المزعوم (روبرتس 2012) (Roberts 2012)، فقد كانت ناجحة في مجال بالغ الأهمية هو إبراز تنامي عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية، الذي عبَّرت عنه بالقول: (نحن نشكل 99 %)، والذي أفسح مجالًا ضروريًّا للحوار العام في الولايات المتحدة، حيث تنبَّه الناس لقضية عدم المساواة وناقشوها.

وفي أماكن أخرى، استخدمت (لا فيا كامبسينا) إستراتيجيات اللاعنف الداخلية والخارجية لرفع مكانتها والترويج لحملتها الخاصة بسيادة الغذاء، وبهذا الصدد غيَّرت الحركة شروط الحوار والنقاش (ديزماريه ونيكولسن 2010) (Desmarais & Nicholson 2010)، وتتزايد النظرة إلى سيادة الغذاء على أنها خيار مستدام بطريقة إنتاج الغذاء الحالية واسعة النطاق للهندسة الزراعية (ويتمان 2009) (Wittman 2009)، مع قيام دول عديدة – منها الإكوادور، وفنزويلا، وبوليفيا، ونيبال، ومالي، والسنغال– بسَنِّ تشريعات لسيادة الغذاء في قوانينها أو دساتيرها الوطنية. ويُدرِج ديزماريه ونيكولسن قائمة بإنجازات أخرى لحركة (لا فيا كامبسينا)، مُشيرين إلى أنَّها:

> «أعادت وضع الإصلاح الزراعي على جدول الأعمال، وحقَّقت حظرًا مؤقتًا على المحاصيل المُعدَّلة وراثيًّا في بعض الدول، وعلَّقت إنتاجها في أخرى، وزادت – في الوقت نفسه– الوعي بأهمية حصول المزارعين على مدخل للبذور والرقابة عليها، كما حسَّنت مشاركة المرأة والشباب وتمثيلهم في السياسة الزراعية والغذائية على المستوى الدولي». (2010، ص 7)

أمَّا الأمر بالغ الأهمية بالنسبةإلى حركة (لا فيا كامبسينا)، فهو أن الجماعات الفلاحية قد بقيت واستمرَّت، بينما أفتى علماء الاقتصاد السياسي الليبراليون والماركسيون بأنَّ من المُقدَّر لها أن تختفي في العصر الحديث.

من الصعب قياس مدى نجاح المنتدى الاجتماعي العالمي؛ لأنَّه فضاء عام، وليس فعَّالية لها أهداف وسياسات محددة، ويمكن للمرء القول إنه أدَّى دورًا ناجحًا في جمع الحركات العابرة للحدود المؤمَّنة باللاعنف، إضافة إلى ذلك فإنَّه ساعد على التغيير في تركيز الحوار مع حركة العدالة العالمية؛ أيّ إن المنتدى الاجتماعي العالمي ساعد على تغيير الحركات العابرة للحدود التي ركَّزت سابقًا على قضية واحدة - حقوق الإنسان، والمرأة، والبيئة، والسكان الأصليين، والمزارعين، والفقر- وحملها على العمل معًا في قضايا متعددة، ومثال ذلك أنَّ (لا فيا كامبسينا) تشارك الآن بحركات عدالة المناخ، والمرأة، والسكان الأصليين، وحقوق الإنسان.

إلا أن حركة النشاط العابر للحدود تواجه تحديات عديدة، ومنها التباين الكبير في اللغات، والثقافات، والأيديولوجيات السياسية، والخلفيات الاجتماعية، والصيغ التنظيمية (الأفقي مقابل العمودي)، وفي حين تُحَبِّذُ حركة العدالة الاجتماعية هياكل المشاركة الأفقية، فإنَّ كثيرًا من تلك الهياكل لم تُعمِّرْ طويلًا، وتفتقر للذاكرة التاريخية التي يمكن للمنظمات العمودية أن توفرها للصراع السياسي طويل الأجل، تلك الاختلافات مجتمعة تجعل من المُستبعَد جدًّا تطور حركة العدالة الاجتماعية إلى حركة متماسكة لها أهداف، وسياسات، وإستراتيجيات اللاعنف نفسها، حتى بالنسبة إلى حركة (لا فيا كامبسينا) التي أُنشئت حركةً ومنظمةً عابرةً للحدود، تواجه قضية التنوُّع نفسها.

تلك الاختلافات تقود إلى توتُّرات، ومن أبرزها القضية العالقة بين مؤيدي تنوُّع الإستراتيجيات، بما في ذلك العنف مقابل الغالبية العظمى المؤيِّدة لإستراتيجيات اللاعنف، وهذا الاختلاف كان واضحًا في حركة (احتلوا)، فعلى سبيل المثال فرضت حركة (احتلوا ديلاور كانتي) على أعضاء المخيم المحلي الالتزام باللاعنف، ومن جهة أخرى تقبَّلت حركة

(احتلوا أوكلاند) فكرة تنوُّع الإستراتيجيات، ورفضت طرد الناشطين الذين قاموا بتحطيم الممتلكات أو قاوموا الشرطة بفاعلية (أوبرايان وآخرون 2012) (O'Brien et al. 2012).

والواقع أنه في حين كان اللاعنف في الحالات التي استعرضناها في هذا الفصل، هو الخيار المفضل بالنسبة إلى الغالبية العُظمى، فإنَّ أقليَّة قد انخرطت في أعمال العنف، والتي بدورها واجهتها الشرطة بعنف وقمع أشدَّ وأقوى، وقد كان العنف هو الصورة التي التقطتها وسائل الإعلام الجماهيرية التابعة للشركات، والواقع أن هذه القضية – تحديدًا– كانت المشكلة التي واجهها كثير من الاجتماعات (وليس كلها) التي عقدتها الهيئات الدولية المُترئِّسة للاقتصاد العالمي، ومثال ذلك أنَّ تورنتو– كندا استضافت في حزيران/ يونيو من العام 2010 قمة مجموعة العشرين من رؤساء الحكومات؛ لمناقشة النظام المالي العالمي وأفضل الطرق لإحياء الاقتصاد العالمي، الذي كان يومها يُعاني ركودًا حادًّا، ولضمان الأمن من المحتجين، أنفقت الحكومة الكندية أكثر من مليار دولار على استعدادات دقيقة، منها نشر (10,000) شرطي؛ أَيْ رجل شرطة مقابل كل مُحتَج، وقد ضمَّ الاحتجاج سكانًا محليين، وجماعات مناهضة للفقر وضدَّ عولمة الشركات الكبرى، ساروا واحتجُّوا بطريقة سلمية، إلا أن الاحتجاج السلمي سرعان ما اخترقه متشددو (الكتلة السوداء) الذين حطموا نوافذ سلاسل المطاعم الكبرى، والمتاجر، والبنوك، وأضرموا النار في سيارات الشرطة، عندها بدأت عمليات اعتقال جماعية، جُمِعَ فيها المئات من المحتجين في مكان أُحيط بسياج أُقيم في الشوارع.

هذا في الحقيقة مجرد مثال آخر على نمط يتكرَّر دائمًا، كلما اجتمع محتجون عند اجتماعات القمة لقادة الاقتصاد العالمي، وهو يعكس ضعفًا في سياسة التواصل على الشبكات، وفي حين أن للتواصل على شبكات الإنترنت ميزات تنظيمية، فإنَّ تأكيده التنظيم الأفقي والانفتاح قد يكون نقطة ضعف، والحركات المرتبطة بشبكات وعلاقات غير مُحكَمَة تعاني نقصًا في التماسك، وهي غير قادرة على فرض الانضباط الداخلي الضروري لضمان أن تكون جميع الأعمال غير عنيفة، مثل ما كان الحال عليه مع شبكة العمل المباشر في سياتل.

ثمَّة دروس هنا يمكن تعلُّمها من (لا فيا كامبسينا)؛ ففي حين أن هذه الحركة تمارس سياسة اللاعنف المُتخيَّلة مسبقًا (الأفقيَّة)، فليس لديها ما يكفي من الطاقة التنظيمية لتنسيق أعمالها في (9) مناطق في العالم (العموديَّة)، ولديها قادة وناطقون في وسعهم الحفاظ على التضامن والانضباط داخل صفوفها بما يكفي للمشاركة في أعمال مباشرة غير عنيفة؛ أَيْ إنَّه يمكن لحركة (لا فيا كامبسينا) الحفاظ على الانسجام بين الممارسة والقيم التي تدافع عنها.

الخلاصة

بحثنا في هذا الفصل ظهور حركة العدالة العالمية، والمنتدى الاجتماعي العالمي، وحركة (لا فيا كامبسينا)، وتأكيد السياسات المُتخيَّلة مسبقًا، واللاعنف في كل واحدة من هذه الحركات، وقد بيَّنا الحالات التي تعرض كيفية استخدام اللاعنف بشكل مُتعمَّد وغير مباشر في الحركات الاجتماعية العابرة للحدود؛ حيث إنَّ الغالبية العُظمى من الجهات الفاعلة ضمن تلك المجموعات تدرك العلاقة بين الوسائل والغايات، وبين الإستراتيجيات قصيرة الأمد والأهداف بعيدة المدى، ولذلك فإنَّ جميع الحركات المذكورة تعكس القول المأثور الذي يُعزى لغاندي: «يجب أن نكون نحن أنفسنا التغيير الذي نودُّ رؤيته في العالم»، حتى حين لا تُفصح عن ذلك.

أسئلة للمناقشة

1. ما جوانب الضعف والقوة في السياسات المُتخيَّلة مسبقًا؟
2. هل من المهم أن تتخيَّل الحركات الاجتماعية العابرة للحدود اللاعنف بشكل مُسبَق؟ أم أن تتبنَّاه ببساطة بطريقة برغماتية من دون قاعدة ثقافية عميقة؟ ولماذا؟

3. ثمَّة وجهة نظر شائعة بأنَّ الأفكار التقدُّمية تنتشر من شمال الكرة الأرضية إلى جنوبها، فما مدى اعتراض هذا الفصل على وجهة النظر هذه؟
4. ما التحديات والفرص التي يواجهها نشاط اللاعنف المتمثل في الحركات المرتبطة عالميًّا بشبكات الإنترنت؟

اقتراحات لمزيد من القراءة والبحث

- جوريس، جيف (2008) (Juris, Jeff (2008) مستقبل التواصل بواسطة الشبكات. دورهام (Durham)، كارولينا الشمالية: مطبعة جامعة ديوك.
- بليرز، جيوفري (2010) (Pleyers, Geoffrey (2010) العولمة البديلة: أن تصبح ناشطًا في عصر العالمية. كمبريدج: مطبعة بوليتي Cambridge: Polity.
- ريتان، روث (2007) (Reitan, Ruth (2007) النشاط العالمي. نيويورك: روتليدج (New York: Routledge).
- سميث، جاكي، وآخرون (2008) (Smith, Jackie, et al. (2008) الديموقراطية العالمية والمنتديات الاجتماعية العالمية. بولدر، كولورادو: بارادايم Boulder, CO: Paradigm.